الإنكشارية العثمانية:
من نخبة عسكرية إلى قوة مُتغوّلة هزّت أركان السلطنة

النشأة والتأسيس

لم تعرف الدولة العثمانية فرقة الإنكشـارية ضمن بنيتها العسكرية إلا مع بدايات عام (1324م) في عهد السـلطان أورخان الثاني، حين ظهرت بوصفها قوة محدودة تتبع السـلطان مباشـرة. ثم ما لبثت أن انتظمت في صورة مؤسسـية واضحـة خلال عهد السـلطان مراد الأول عام (1360م)، لتتحول تدريجيًا من فرقة مرافقة للسلطان تحرسه وتنتقل معه

> "ابتزوا الدولة وهزوا أركانها وأصبحوا مؤسسة رعب للسلاطين."

حيثما حلّ، إلى جهاز عسكري مستقل عن الجيش التقليدي، قبل أن تتضخم قوتها لاحقًا حتى تبتلع الجيش نفسه، وتكاد تُطبق على السلطنة بأكملها.

فبعد أن كانت أداة لحفظ الأمن وضمان الاسـتقرار، تغيّر موقع الإنكشـارية داخل النظام السياسي؛ فابتلعت القـرار العثماني، وأصبحت قـادرة على تعيين السلاطين وعزلهـم، أو على الأقل التدخل المباشر في القرار السلطاني، وانتزاع الامتيازات والأموال، وصناعة شكل الدولة وفق أهوائهم. وهكذا تحوّل أولئك الغلمان الذين سـيقوا إلى الأناضول عنوة كأسرى إلى أصحاب سلطة حقيقية ويدٍ عليا تتحكم في مصير الدولة.

الهوية العسكرية

تُعرّف المصادر الإنكشارية بأنها طائفة عسكرية من المشاة تمتعت بتنظيم خاص، وتكتات مستقلة، وشـارات ورتب وامتيازات فريدة. وقد شـكّلت على مدى قرون أقوى فرق الجيش العثماني وأشدّها نفوذًا. وتربط المصادر التركية بين هذه الفرقة والنزعة الصوفية البكتاشية التي اصطبغت بها، وتعود جذورها إلى الزعيم الصوفي حاجي بكتاش ولي (القرن الرابع عشر الميلادي)، الذي كانت له علاقة قوية بالسلطان مراد الأول. وتروي المصادر أن السلطان، حين استحدث فرقته الجديدة من المشاة، طلب من حاجي بكتاش مباركتهم، فمسـح على رأس أحدهم وقال "يَڭي چَـري" أي الجند الجدد. ومن هنا جاءت تسـمية "الإنكشارية". كما نُسبت إليهم القلنسوة البيضاء الطويلة التي تشبه كمّ عباءة حاجي بكتاش، فصارت رمزًا خاصًا بهم.

الدوشيرمة

بدأت الإنكشـارية قوات طليعة مؤلفة من غلمان مسـيحيين مخطوفين عبر نظام الدوشيرمة، من الصرب واليونانيين والبلغار والألبان. كان هؤلاء الصبية يُنتزعون من أسرهم، ثم يُجبرون على اعتناق الإسلام، ويُدمجون لاحقًا في التنظيم العسـكري والإداري للدولة. وبعد تهذيبهم وتدريبهم، يُقسَّمون بين خدمة السلطان والجيش. غير أنّ الزمن حوّل هؤلاء إلى مرتزقة محترفين لا يعملون إلا بالعطايا، وتسـامحت الدولة مع تجاوزاتهم في السـلب والنهب ما داموا يظلون قوة ضاربة يمكن تسخيرها وقت الحاجة.

يقول إسـماعيل ياغي في كتابـه الدولة العثمانية فـي التاريخ الإسلامي: "كانوا فرقة من المشـاة المحترفين، لها امتيازاتها الخاصة... وشُكّل في صفوفها الصبية السلاف الأسرى". ومع ازدياد اعتماد الولاة على الجنود المرتزقة، توسّع نفوذ الإنكشارية، فتحولوا من عناصر دعم إلى قوة ضاغطة تمارس التمرد وتفرض إرادتها.

ابتزاز الدولة

لم يقتصر نفوذ الإنكشارية على الجوانب العسكرية، بل امتدّ إلى صميم السياسة العثمانية.

يقول ياغي إنهم: "كانوا يتدخلون في اختيار السلطان وفي شؤون الحكم... وقد أصبحوا عنصر شغب وفوضى بعد توقف الفتوحات". ومع انحسـار الغنائم وتراجع الحملات العسكرية، تحولت هذه القوة إلى كيان باطني متضخم، يفعل كل ما يضمن استمرار امتيازاته. فأصبحوا يخلعون السلطان إذا لم يقدّم لهـم حروبًا تتيح لهم الارتـزاق، أو إذا رفض زيادة عطاياهم. وأضحى من المسـتحيل على أي سـلطان إهمال تقديم الهدايا لهم عند جلوسـه علـى العرش، وإلا تعرّض للإهانـة والتمرد. وهكذا أصبحت السـلطنة نفسها رهينة لنزوات هذه الفئة المسلحة التي تحولت من مؤسسة الجيش إلى حاكم خفيّ للدولة.

الفساد والنهب

يصف محمد الخطيب في كتابه بلاد الشـام في العهد العثماني أثر الانكشـارية على الريف: "نتج عن انشغال الإنكشـارية بالقضايا الاقتصادية عزوفهم عن أي نشاط عسكري... كما تضاءل نشاطهم في الريف بسـبب فقـره واندثار عدد كبير مـن القرى نتيجة ابتزازهـم لأموال سـكانها". فقد تركز همّ الإنكشاريين على التجارة، والسمسرة، وفرض الأتاوات، واحتكار الأسواق، فخربت القرى وتفهقر الإنتاج الزراعي في مناطق عديدة. ولمواجهة غضبهم، لجأ السلاطين إلى تشغيلهم بالحروب، والسماح لهم بالغنائم والنهب، لكن ذلك لم يكن سوى حلول مؤقتة. فسرعان ما عادوا للتمرّد داخل العاصمة، حتى باتت الدولة عاجزة عن ضبطهم.

في كتابه الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، يصف عبدالعزيز الشـناوي هذا التحول الحاد "ثم غدوا مركز قوة خطير في حياة الدولة... استشـرى نفوذهـم وازدادوا إدراكًا لأهميتهم، فداخلهم الغرور وصلّبَ على صلف"، ويضيف "كانت الفيالق الإنكشـارية لا تعبأ بشـروط التسـليم، وتنطلق للنهب والسـلب والقتل، وهتك الأعراض وإحـراق المباني... وفي أوقات السـلم كانوا يلجؤون إلى حركات عصيان تحمل معنى التحدي للسلطان". بلغ التحدي ذروته حين منعوا موكب السلطان من الوصول للقصر، ورفعوا في وجهه كؤوس الشراب والخمور على سبيل الإهانة والاستفزاز، في مشهد يلخص انهيار هيبة الدولة أمامهم.

بهذه التحولات العميقة، انتقل الإنكشـارية من كونهم نخبة عسكرية في الدولة العثمانية إلى أخطر قوة متمرّدة عصفت باستقرارها السياسي والاقتصادي والعسكري، وأسهموا بشكل مباشر في تآكل بنيان السـلطنة وتضخم أزماتها الداخلية، حتى بات إصلاحهم أو القضاء عليهم تحديًا وجوديًا واجهه السلاطين قرونًا طويلة.

المراجع:

1. إسـماعيل ياغي، الدولـة العثمانية فـي التاريخ الإسلامي (الريـاض: مكتبة العبيكان، 2001).
2. عبدالعزيز الشـناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (القاهرة: مكتبة الأنجلو، 2021).
3. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية (بيروت: دار النفائس، 1984).
4. وليد حسـين، "الإنكشـارية... حين يتحـول الأطفال المخطوفـون إلى فرق للموت"، الهيئة الوطنية للإعلام المصرية (2020).